

دور الجامعات في تعزيز ثقافة الحوار وبناء الوحدة الوطنية في العراق

الدكتور

اسامة

مرتضى(*)

لمقدمة:

تمارس الجامعات في كل دول العالم دورا مهما داخل مجتمعاتها من خلال ما تقدمه من مخرجات تساهم في تشكيل الوعي الاجتماعي والثقافي للأفراد، أي لا يقتصر دورها بالأدوار التعليمية والقطاعية العلمية الصرفة، فمقياس رقي المجتمع وتحضره يقاس بعدد الجامعات وعدد الحاصلين على الشهادات في الدراسات الأولية والعليا، وبالنتيجة يشكلو المكون الجمعي الثقافي للمجتمع.

إما الثقافة بوجه عام فهي أسلوب حياة يتبلور ويتكون عبر سنوات صيرورة المجتمع وتتشكل لتكون ثقافة متميزة ومتطورة عن غيرها من المجتمعات.

الحوار والتسامح هي قيم موجودة في ثقافة اغلب المجتمعات لكن قد تتراجع في بعض الاحيان لصالح العنف والنزاع لاعتبارات سياسية او عرقية او طائفية غالبا ما تسود المجتمعات غير المتحضرة التي تفتقر الى دولة المؤسسات وغياب قيم واليات المجتمع المدني.

ان المجتمع العراقي هو مجتمع تتجذر فيه قيم التسامح والتعايش من عهود طويلة و يتكون من فسيفساء قومية وعرقية متداخلة ومتراصة عبر عهود طويلة مهما كانت النخبة السياسية الحاكمة وحتى مع فترات حالكة مر بها العراق لتدخلات إقليمية او دولية. ان ما مر به العراق في المرحلة الماضية بعد نيسان / ، انما ناتج عن ثقافة وافدة من الخارج مع دخول القوات المحتلة الأجنبية الى العراق.

لذا فان البحث إثبات فرضية ترمي الى ان الجامعات جزء من مركب بناء الوحدة الوطنية للمجتمع وإشاعة ثقافة الحوار والتسامح وبناء المجتمع المدني العراقي من خلال:

- مدخلات العنف وعدم الاستقرار في المجتمع العراقي.
- مضامين التسامح والحوار والمصالحة الوطنية داخل بنية المجتمع العراقي

(*) كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية..

- الجامعات بوصفها احد مداخل الاستقرار الاجتماعي والاندماج الداخلي .
ان الواقع العراقي اليوم وبعد مرور اكثر من سنة تقريبا على إتباع نهج الحوار والمصالحة الوطنية والاعتراف بالآخر وتجاوز سلبات المرحلة الماضية وتدخلاتها أسهم في تأسيس لمرحلة جديدة وبداية تحتاج الى المحافظة على هذا المنجز ولعل الجامعات والمؤسسات التعليمية هي الأداة الأبرز للمحافظة وإدامة هذا النهج لان جزء من اكمال المنظومة التصالحية (اللاعنفية) هي مشاركة المؤسسات غير السياسية وغير العسكرية ، لاتمام ما بدأتها تلك المؤسسات ولان تجارب الدول تفيد ان استقرار المجتمعات واستمرارها موحدة متعايشة لا يكون الا عن طريق بناء ثقافة تسامحية مستديمة لتحقيقها الاليات العسكرية والامنية في كل الظروف.

اولا : مدخلات العنف وعدم الاستقرار في المجتمع العراقي :

العنف هو حقيقة بشرية لا ترتبط بمكان أو زمان معينين، ولا تقتصد : على فكر أو ثقافة أو جنس أو دين، ينتج عن تراكمات من اليأس والغضب والانتقام والكبت السياسي والفكري، وغياب المساواة والعدالة الاجتماعية للأفراد.

إن تفجر التوترات والمصادمات الداخلية إنما ينم عن وجود خلل أو فشل في :-

- النظام الاجتماعي العام.

- عمليات الضبط الاجتماعي.

مما يفضي إلى سيادة الخوف والقلق من أعمال العنف التي تأخذ صورا مختلفة وأشكالا متعددة بحسب الأطراف المتداخلة ومستوى الخلاف والصراع بينهم، مما يعني غياب السلامة والطمأنينة داخل المجتمع المتفجر.

المدخلات المؤدية لأعمال العنف: يخطيء من يظن إن العنف ينتج عن أسباب أنية، فالتوترات الداخلية إنما هي محصلة للتفكك الحاصل في المجتمع لمرحلة متقدمة و متواترة.

فحالة التفكك المستدامة تظهر عندما تعصف بالمجتمعات الحروب، والكوارث الطبيعية، والنكبات والهزائم العسكرية، والأزمات . الاقتصادية، والتغيرات المفاجئة والسريعة في موازين القوى والسلطة والمال داخل المجتمع، مما يؤدي إلى ظهور أعمال العنف كمتنفس طبيعي لتلك التحولات .

¹ . خالد فرج: "دور مؤسسات الضبط في الامن الاجتماعي"، سلسلة المائدة الحرة ، بيت الحكمة ، العدد ()

()

² ستيفن زونس: "قوة العمل العنفي" ، مجلة مكتب الاعلام لوزارة الخارجية الامريكية، العدد () □ .

إلى جانب ذلك فإنه في كثير من حالات عدم الاستقرار الداخلي والفتان الأمني الذي يحدث داخل المجتمعات إنما يكون بسبب وجود أطراف خارجية تغذي حالة عدم الاستقرار وتدعمها اقتصاديا وعسكريا وحتى بشريا، لدوافع مختلفة بحسب خصوصية كل دولة وما يجاورها، لكن في العموم تكون عملية التدخل في الشؤون الداخلية للدول هو بداعي تغيير الأنظمة السياسية القائمة وإقامة أنظمة سياسية جديدة ترتبط بمصالح وأهداف الدولة الداعمة بحسب أطراف اللعبة الإقليمية والدولية.

أي انه يمكن القول ان أعمال العنف تكون حسيطة لمتغيرات تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وإقليمية ودولية تعمل جميعها متفاعلة لتؤدي إلى حالة معينة حالات الصراع والاقتتال الداخلي .

المخرجات التي تقضي عن إعمال العنف: كما أسلفنا فإن المجتمعات التي تعاني من حالة حراك وهيجان بصيغ وأشكال مثل القيام بأعمال مسلحة أو عمليات أبادة جماعية وتدمير المؤسسات العامة فإن تلك العمليات ستؤدي إلى جملة من النتائج قد يكون بعضها قد دخل فعلا في مخططات من يقود تلك العمليات وأخرى كنتيجة عرضية تطفو على مسرح العمليات.

أول تلك النتائج هو سقوط العديد من المدنيين الأبرياء، ذلك إن الساحة الرئيسة لعمليات العنف هي المدن والأقضية ومراكز التجمعات السكانية، وليس في أطراف المدن الحدودية أو المناطق المعزولة والنائية، مما يؤدي إلى جملة من المشاكل الاجتماعية المتمثلة في تزايد أعداد العوائل المتفككة لفقدانها أحد ذويها أو في بعض الأحيان زوال مناطق وعوائل بأكملها .

النتيجة الثانية هي غياب أو ضعف سلطة القانون وانحسار الجانب الأمني انحسارا ملحوظا وإصابة المؤسسات الحكومية بالشلل، وسيطرة المظاهر البيروقراطية على العمل الإداري، وبسبب هذا الضعف التنفيذي (الأدائي) يكثر الرياء الوظيفي، وازدياد الدجل السياسي، وفي بعض الحالات تستغل حالة الفوضى والعنف التي تسود المجتمع في السعي وراء جمع المال والثروة والربح السريع، بسبب ضعف السلطات الرقابية وغياب الرادع الجزائي، مما يعني الضعف العام لمؤسسات الدولة والمجتمع.

النتيجة الثالثة هو انحسار جانب الإبداع الفكري والعلمي والمهنية في العمل، وفي العموم يمكن القول إن المال والعنف يصبحان هما المعياران الوحيدان لضمان الحياة في بيئة

³ اسامة مرتضى: "العنف مدخلاته مخرجاته حلوله المفترضة". منشورة في نشرة الرأي الاخر كلية العلوم السياسية، الجامعة المستنصرية، العدد ()

5. عبدالاله بلقزيز، في الديمقراطية والمجتمع المدني: مرآتي الواقع، مدائح الأسطورة: (بيروت، أفريقيا الشرق، □ □ □ □ -) .

وهكذا ، فإن الوحدة الوطنية كمفهوم ، يقصد بها صهر العناصر السكانية المختلفة في وحدة اجتماعية هي الأمة ، وتنظيمها من ثم في نظام سياسي معين واحتوائها في هيئات أو مؤسسات للدولة أو بعبارة أخرى ، تنظيم العناصر السكانية اجتماعيا والتقدم بها الى المنظومة الدولية في هيئة دولة مستقلة ذات مصالح وطنية متميزة عن الدول الأخرى.

يواجه العراق تحديا جديدا يعادل في خطورته ومساحته كل التحديات التي مابرح العراق يواجهها منذ عقود عديدة ومن شتى المجالات الإقليمية والدولية ، ويتمثل ذلك التحدي بتغليب الانتماء الطائفي ... وتغليب الولاء الوطني وروح المواطنة ، ولأن أواصر وحدة المواطنة هي بالأساس ضعيفة نسبيا بفعل الممارسات الخاطئة للأنظمة السياسية المتعاقبة ، فضلا عن أعراض النخبة في بذل ما يستحقه مشروع ترسيخ الهوية الوطنية الموحدة المنوطه به استيعاب وتمثيل كل أطراف التكوينات الاجتماعية والحضارية المتأخية عبر السنين ، بصرف النظر عن كثافة أعراقها وطبيعة أديانها وتلاوين طوائفها وأهمية لغاتها ، فقد استيقظ على حين غرة الحس الطائفي وتفاقت العصبيات النازعة الى التحول عن أشكال حضارية متنوعة ضمن نسيج المجتمع الواحد ، الى كيانات سياسية متعددة ومتقاطعة تهدد الوحدة الوطنية للمجتمع وتضرب بقوة أسس كيانه المتماسك.

وأصبح الوضع العراقي يثير العديد من التساؤلات حول حقيقة وجود هوية عراقية موحدة أصلا في ظل الانفلات الأمني و الانهيار السياسي وتلاشي هبة القانون.

ان وجود الحالة الطائفية في العراق لا يعني الاستسلام والخضوع لها وترقب نتائجها المدمرة ، بل يتوجب التصدي لها ومحاربتها وصولا الى تطويقها وإلغاء دورها ، لأن التهاون في التصدي لها يحولها من نتاج للواقع الى حالة ترسخه في المجتمع تؤدي الى انهياره ، فالطائفية ان تمكنت من مجتمع ما فإنها تتراكم تدريجيا وتحشر في اللوعي حتى تصبح هي العقل الرئيس له وتصبح وجدان الإنسان وحقيقته وهويته .

ومع ذلك ليس من شك بأن الانفتاح السياسي والتحول الديمقراطي يمكن يزيد من فر التدخل الخارجي من ناحية، ويزيد من فاعلية التجمعات والتنظيمات النشطة (المتعصبة) من ناحية أخرى. وفي السياسة ليس هناك ضمانات قانونية أو سياسية سوى صحة السياسة المتبعة ذاتها وملاءمتها الأهداف المطلوب تحقيقها... وكى لاستغل عملية

⁶ فكرت نامق: "دور الجامعات في تعزيز الوحدة الوطنية" بحث غير منشور . . "

الإصلاح بما تتطوي عليه من مظاهر انفتاح وتحول ديمقراطي ، ثمة مداخل يمكن تقديم إطارا لاحتواء مظاهر الأزمات المحتملة :

المدخل الأول: ويقوم على بلورة سياسة الانتقال السلمي، والمتحكم به، من خلال التأثير في للرأي العام والنتخابات الاجتماعية، لحملها على التفكير بمنطق المستقبل وتجاوز الماضي ، والتغلب على مشاعر العنف الداخلي والشعور بالتعرض للعنف، والمهم في هذا المدخل لا تكون الانتخابات الاجتماعية المتنافسة في تفكيرها □ أفعالها حبسية الماضي وما تركه من آثار.

المدخل الثاني: وينطلق من مبدأ السياسة السلمية تقوم على مبدأ الصديق بمعنى الجرأة في مواجهة الواقع. ليس هناك إصلاح حقيقي للعلاقة مع البيئة الاجتماعية والرأي العام دون كسب ثقة الناس وإقناعهم بالتغيير من جهة، وإيمانهم بصديق النوايا من جهة أخرى. وإن ما يمكن يقدمه مشروع الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي من فوائد وإغراءات للبيئة الاجتماعية تجعل الشعب والنتخابات الاجتماعية تشعر بأن ما تجنيه من التسوية الجديدة في إطار انتقال ديمقراطي وسلمي أكثر مما تجنيه من التمرد على الدولة وعلى النظام السياسي أو من التناحر الفئوي.

المدخل الثالث: ويركز على إعادة البناء السياسي للبيئة الاجتماعية بمعنى إنشاء وتكوين المؤسسات والهيكل الحديثة المؤطرة والمنظمة والمعلقة لحركته وسلوكه. بما في ذلك خلق الشروط الملائمة لنمو الهياكل النقابية والحزبية المستقلة (مؤسسات المجتمع المدني) (لتي يمكن) تستوعب الاحتجاج والاعتراض والاختلاف في الرأي، وبالتالي تطور الهيكلية الجديدة للمجتمع.

المدخل الرابع: ويتمثل في إعادة التوازنات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بمعنى التمسك بمبدأ العدل والنزاهة والمساواة الفعلية بين الناس والكف عن كل أشكال التمييز والحظوة والعصبية والقبلية أو الطائفية.

المدخل الخامس: ويتمثل في □ حقيقة السياسة هي قبل كل شيء التفاهم والتفاوض مع القوى الواقعية الموجودة في البيئة الاجتماعية والوصول معها إلى التسويات المؤقتة والبعيدة المدى التي تساعد على تحقيق الأهداف الوطنية المحددة وهذا يعني أيضا أن تكون هذه الأهداف واضحة بدقة للجميع ومقبولة بل

⁷ . ثامر كامل محمد، النظم السياسية الحديثة والسياسات العامة : دراسة معاصرة في استراتيجية □ السلطة، (عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، □ □ □ وما بعده .

الديمقراطية لا تعني في العمق سوى افتتاح عصر المفاوضات العامة والاتفاق على أسس المصلحة الوطنية.

ثالثاً: الجامعات بوصفها احد مداخل الاستقرار الاجتماعي والاندماج الداخلي:

لا تزال الجامعات العراقية على الرغم من كل ما تعانيه من اشكاليات وتحديات علمية وإدارية لكن تبقى ركيزة مهمة من ركائز البناء والتقدم داخل المجتمع ايا كان هذا المجتمع ، ومن خلال دراسة ميدانية والتوزيع الديمغرافي نجد ان هناك توزيعاً شبه متوازن على اغلب المحافظات العراقية للجامعات والمعاهد ولا توجد هناك تمايز في القبول او ضوابط تختلف بل ان جميعها تابعة لوزارة المركز التعليم العالي والبحث العلمي باستثناء اقليم كردستان .

يتأتى دور الجامعات والمؤسسات من خلال إمكاناتها التنقيفية في التنشئة لغرض الموازنة بين حرية الطالب في التمسك بتقاليده ومعتقداته الفكرية والدينية وبين غرس ثوابت قيمية ، ثقافية معتدلة قائمة على مبدأ قبول الآخر في عقلية وفكر الجيل الجديد ، بمعنى آخر ان الانحراف الفكري والتعصب الطائفي والعنصري يولد التشدد بكل جوانبه الفكرية والمجتمعية خاصة عندما لا توجد محددات مهمة لسلوكيات الفرد وتوجهاته مما ينتج عنف سلوكي حيال الآخر قد يقود الى عنف سياسي وفكري .

فالجامعة بوصفها مؤسسة علمية تعنى بتنشئة جيل مهم تعتمد عليه خطط المستقبل وتوجهاتها ، يجب ان لا تتبعد عن حقيقة المشاكل المجتمعية التي تؤثر في أداء وفاعلية الجامعة في تحقيق هدفها بالتنشئة والتنقيف ، وعلى سلوك الطالب الذي سوف يمثل فيما بعد سلوكيات مجتمعية سائدة ومتوارثة ، بمعنى ان الجامعة تمثل البودقة التي تنصهر فيها مختلف التوجهات الفكرية والثقافية والدينية ، فضلاً عن ان الجامعة يقع على عاتقها مسألة التمييز بين ما هو معتدل فكرياً ومقبول وبين ما هو متطرف مرفوض .

تلك المنظومة التعليمية انتجت حالة مركبة من التعاطي المجتمعي سواء بين الطلبة من مختلف المشارب والانتماءات او من خلال قيم التحضر والتشذيب للثقافات الضيقة والفرعية وصرف اذهان ومدرجات الطلبة نحو القيم العلمية والاخلاقية بعيداً عن القيم العشائرية والعصبية القبلية والمذهبية وتبقى المعادلة قائمة وراهنه بحسب قدرة الجامعات والمؤسسات التعليمية ومراكز البحوث على تجاوز السلبات الذاتية والقدرة على الانتشار داخل المجتمع واحداث عملية التغيير الحضاري المطلوبة من خلال :

⁸ فكرت نامق: نفس المصدر السابق ، ص .

إن الحلول اللازمة لمواجهة أعمال العنف والقتل والتهجير التي يعاني منها المجتمع تستلزم ما يأتي :

أولاً: تفعيل ما يمكن إن نطلق عليه " وسائل الضبط الاجتماعي " للتعامل مع حالة فقدان الأمن عبر توسيع نطاق القانون وتمتين قواعدها لمواجهة أي انحراف اجتماعي حاصل أو سيحصل. فوسائل لضبط الاجتماعي هي كالضغط الجوي موجودة في حياتنا ولكن لا يشعر بها الأفراد الملتزمون بقواعد القانون، وإنما يشعر بها من يرى أنها تقيد وتعيق تحركاته وتوجهاته وأهدافه سواء أكانت مشروعة أو غير مشروعة.

ثانياً: في ظروف الفوضى وعدم الاستقرار يفترض إن تتم عملية (تطويع) للمجتمع تطويعاً (عادلاً)، بين كافة أفرادها لتساهم مساهمة واضحة في خلق حالة مستقبلية مستقرة للمجتمع، وعلى العكس فإن حالة (التطويع الانتقائي) وعملية (التدجين) بمعنى الإحفاف في تطويع المجتمع إن صح التعبير ستؤدي إلى تراكمات وإسقاطات مستمرة تقضي إلى دوامة مستمرة من العنف التي لا تنتهي وشواهد الحروب الأهلية عديدة.

ثالثاً: إلى جانب الدور الرئيس للمؤسسة القانونية والمتمثلة بالسلطة القضائية والأجهزة التنفيذية والفرعية التابعة لها يفترض إن يتم اتباع ما يأتي:-

-- دعم إلية الثواب والعقاب للخارجين عن القانون والمسيئين.
- دعم المؤسسة الدينية باعتبارها عامل موحد وعنصر استقرار داخل المجتمع، وليس عامل تفرقة وعنصر فتنة.

- تفعيل المؤسسة الاقتصادية، وتحقيق الأمن الاقتصادي للأفراد خاصة في ظروف الأزمات الأمنية، فأن الهاجس الاقتصادي يكون الأبرز والمسيطر والمتحكم في سلوك الفرد. تحقيق الأمن الاقتصادي يكون بتدعيم كافة المؤسسات الإنتاجية والخدمية، وتبني إلية الضمان الاجتماعي عبر نشا شبكة الحماية الاجتماعية لكل الأفراد دون استثناء.

- التأكيد على الدور الايجابي للأعلام بوصفه احد آليات الضبط والتنشئة الاجتماعية السليمة على وفق معايير احترام القيم الأخلاقية والقانونية العامة.

رابعاً: إيجاد صيغ وفق مساومات ومفاوضات سياسية بهدف تحييد الأطراف التي لها دور في دعم أعمال العنف وعدم الاستقرار داخل المجتمع، لأن إيقاف الدعم الخارجي معناه بقاء تلك الجماعات المهتدة للأمن الداخلي كأفراد ضعفاء مشرذمين خارجين عن سلطة القانون.

⁹ اسامة مرتضى : نفس المصدر السابق، ص □

اخيرا يبقى العامل الزمني هو الفيصل في تدعيم ركائز الاستقرار الأمني و الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وما يتم بينيه من حلول موضوعية عملية تسهم في تثبيط دوامة العنف، والفشل معناه لن يكون هناك خاسر أو رابح، وإنما الجميع خاسرون.

الخاتمة:

عملية صنع الوئام في العراق هي ليست بالقضية اليسيرة وإنما تستلزم استراتيجيات فرعية في مختلف الاتجاهات لتصب بالمحصلة النهائية باستقرار العراق، والتي تتضمن خطط أمنية وسياسية واقتصادية وعسكرية والأهم من ذلك هو تحيد الجانب الأمريكي في عدم التدخل في عملية المصالحة الوطنية العراقية بناء على فكرة مفادها ان مركب الفوضى الحالية ساهمت فيه الولايات المتحدة الامريكية ونسبة كبية ولا تزال.

اضف الى ذلك ضرورة اصلاح المنظومة التعليمية العراقية باتباع خطط طويلة الامد تعزز ثقة المجتمع برصانة الجامعات وتعزيز الثقة فيها الى جانب كل ماسبق على المجتمع العراقي ان يغير مدركاته وتصوراتهِ حول معطيات الواقع العراقي وان يتحرر من عقلية الانتقام والتدمير لان تلك الرؤية اثبتت عدم جدواها وعلى كل الاطراف ان تقدم تنازلات وان يعوا ان من يتضرر جراء اعمال العنف هم انفسهم. ان الاعتدال شرط مهم من شروط الاستقرار والتنمية.